

مجلة علم النفس

مجلد ٥

فبراير - مايو ١٩٥٠

عدد ٣

فصول في الطب السيكوسوماتي (٣)

الطب النفسى الجسمى Psychosomatic Medicine

ربو الشعب الرئوية

للدكتور مصطفى زبور

يعتبر تاريخ مشكلة الربو ، خير مثال لتطور الدراسات الإكلينيكية التي أفضت إلى الاتجاه السيكوسوماتي . فقد فطن الأطباء منذ القدم إلى ما للعوامل النفسية من أهمية في إثارة نوبات الربو . فهذا « لينيك » Laennec يعرض في فصل أفرده للربو لحالة مريض كانت تتابه نوبة الربو إن وجد في مكان مظلم أو إن أخلق باب غرفته . ويذكر الطبيب « تروستو » Trousseau عن نفسه - وقد كان مصاباً بالربو - أنه ارتاب ذات يوم في أمانة سائق عربته ، وظن أنه يختلس من الشعر المخصص لحياد العربة فانتابه نوبة ربو يعلق عليها بقوله : « طالما تعرضت في شوارع باريس وطرقانها ، وفي السكك الزراعية ، لجو به من الغبار أكثر من ذلك المكان الذي لم ألبث به غير لحظات قصار أثناء وزن الشعر . ولكن جهازى العصبى اضطرب تحت التأثير النفسى الذى أحدثه الاعتقاد بأن شيئاً ما سرق من بيتي - رغم ثقاهته - حتى أن مشيراً بسيطاً هو ذلك الغبار القليل كان له مثل هذا الأثر العنيف » ويذكر الدكتور جالوب (١) حالة مريض تحدثت النوبة لديه ورائحة السيارات ، حتى كان يتجنب دائماً

(١) Gallup: L'Asthme d'origine Psychique. Gazette Médicale de France. 1937.

دخولَ حظائرها ، ويخص بضيق في التنفس مجرد سيره في الطريق العام . وذات يوم دخل إحدى دور السينما ، ولم يشعر - برغم احتباس الهواء - بأى ضيق ، ولكن ما أن ظهرت على الشاشة إحدى السيارات حتى انتابه نوبة ربو حادة . وقد أدى تقدم البحوث الكيميائية ، واكتشاف ظاهرة تغير الحساسية الكيميائية المعروفة بالآليرجيا Allergy ، إلى صرف الأذهان عن الجانب النفسى لمرض الربو . ولم تعد الدراسة الطيبة يعنىها غير الجانب الجسمى حتى بدا للبعض أن التفسيرات السيكلوجية بعيدة عن التفكير العلمى الحق . ولكن البحوث الخاصة بالآليرجيا لم تسفر إلا عن قدر ضئيل من النتائج بينما تقدمت البحوث النسبة تقدماً كبيراً فأنجحت الدراسة الإكلينيكية وجهة جديدة : ذلك أن الجانب النفسى لم يعد مجرد مظهر ثانوى ، واتخذت النظرة الثنائية التى ترى الإنسان مركباً من جسم ونفس وحلت محلها نظرة جديدة تعتبر الظواهر النفسية والجسمية تعبيرين مختلفين عن وحدة الحياة الإنسانية . ولم تلبث هذه النظرة غير قليل حتى تمت لها السيادة وأصبح شعار الأطباء ، «أحرى بنا أن نعرف حقيقة المريض الذى انتابه المرض ، من أن نعرف حقيقة المرض الذى انتاب المريض» . ويعنى ذلك أن معرفة شخصية المريض وأحواله لا تقل أهمية بأى حال عن أهمية معرفة طبيعة المرض وأعراضه .

وهكذا كان هدف الدراسة السيكوسوماتية أن تصيف إلى الوصف الإكلينيكى للصفات الجسمية ، وصفاً آخر للسمات النفسية كى يكتمل فهمنا للمرض . وأصبح من المسلمات أن ما يصفه لنا الفسيولوجى وصفاً تحليلياً فى عبارة كيميائية هو نفس ما يصفه السيكلوجى وصفاً تركيبياً فى عبارة سيكلوجية .

من بين البحوث الجديرة باهتمامنا من حيث العمق فى وصف شخصية المريض بالربو نذكر أولاً تلك التى نشرها المؤلفون الإنجليز « روجرسون » و « هارد كاسل » و « دجوى »^(١) وثانياً البحوث التى قام بها المهللون النفسيون الأمريكيون « توماس فرنش » و « معاوتوه »^(٢) .

(١) Rogerson, Hardcastle, Duguid — A psychological approach to the problem of asthma and the asthma eczema-prurigo syndrome. Guy's Hosp. Rep. 65, 289, 1935.

(٢) French, Alexander & Others — Psychogenic Factors in Bronchial Asthma. Psychosom. Med. Monop. 1941.

كان بحث المؤلفين الإنجليز على أطفال مصابين بالربو ، وفيما يلي خلاصة بما يتميز به هؤلاء الأطفال من سمات سيكلوجية : « ذكاء عال تكشف عنه اختبارات الذكاء اللفظية ، مع ضعف في القدرة على العمل اليدوي ، وقلق ملحوظ ، وانعدام الثقة بالنفس وأخيراً قدر كبير من النزعة العدوانية الكامنة والتركز الذاتي » . ولقد تبين أن آباء هؤلاء الأطفال يقفون منهم موقفاً بسوده الانشغال والرعاية إلى حد مرضي وهي صفات توحي بوجود تعويض ، أي أنها مغالاة في العطف تخفي بغضاً مكتوباً ، وقد راضى هؤلاء الأطباء في محاولاتهم العلاجية أن يجعلوا الآباء يتخذون موقفاً أقل انشغالا وقلقا على أبنائهم ليتاح للأطفال فرص أوفر للاستقلال . وقد كانت معظم النتائج مسددة .

أما الأمريكيون فقد اهتموا بوجه خاص بالبالغين ، وتناولوهم بالتحليل النفسي . وفيما يلي يوجز « فرنس » ما أسفرت عنه هذه البحوث : « تنزع نوبة الربو لأن تنار في المواقف التي تهدد . المريض بالانفصال عن بديل أمه . وقد يكون الانفصال الذي يحشاه المريض انفصالاً جسدياً ، وكثيراً ما تحدث الأزمة حين يتعرض المريض لعوابة من العوايات تهدد ارتباطه الوجداني ببديل الأم . وفي مثل هذا الموقف تكون أزمة الربو بمثابة دموع مكتوبة » .

وفيما يلي نسرد تاريخ حالة ربو قمنا بعلاجها ، وبمنه تبرز السمات التي تتميز شخصية المصابين بالربو ، ويتبين ارتباط هذه السمات بأعراض المرض الجسدي (١) : سيدة في السادسة والأربعين من عمرها ، تتلخص شكواها في اعتلال صحتها اعتلالاً يتزايد منذ ثلاثة أعوام ، وأوجاع في غير ما موضع من جسمها ، وآلام في الرأس وضيق وقلق ، وأخيراً نوبات ربو تعاودها منذ حوالي العشرين عاماً . اثنتان أول أزومات الربو في عام ١٩٢٣ غداة وضعها طفلها الثاني . ومنذ ذلك الحين تكاثرت عليها أزومات الربو مصحوبة بالتهاب الشعب . وكثيراً ما كانت بعض هذه الأزومات من الصنف الحاد الذي يستلزم الوجود بالمستشفى لاتخاذ الإجراءات العلاجية الحاسمة .

تزوجت هذه السيدة في سن العشرين من شاب روماني ، وبعد قليل من الزواج يتبين أن الزوجين يرتبطان ارتباطاً وجدانياً يقوم على أساس عصائبي .

(1) Ziwari, M. Psychanalyse des Principaux Syndromes Psychosomatiques. Revue Française de Psychanalyse, 4, 1948.

مما جعلها عرضة للاستفزاز المتبادل : الذي يؤدي إلى الخلاف فالافتراق فحالات الصلح فالعودة إلى الحياة الزوجية لاستئناف الدور وهكذا دواليك. وفيما يلي أروي حادثة وقع عقب الزواج فهو يصور في وضوح تغلب حياتها الزوجية وتقلقلها : أصيبت الزوجة ذات يوم بحمى وظهر في بصاقها بعض خيوط من الدم ، فلم يعر زوجها الأمر اهتماما فتطلب الأمر إلحاقها بالمستشفى حيث تحظى برعاية أوفر . وما زارها زوجها مرة إلا وأسمعها من الأمور ما يغيظها كغفاماته مع النساء ، حتى اجترأ يوماً فتطلبها بجرائم الزواج لبيعه . في هذا الجو بدأ يتتابها في موعد الزيارة البوي نوية من القشعريرة يعقبها ارتفاع في درجة الحرارة مما دعا إلى تشخيصها بأنها ملاريا ولكن فحص الدم لم يؤيد ذلك التشخيص . وما كادت تشفى حتى وصلها خطاب من زوجها يخبرها فيه أنه قرر هجرها . هنالك يسقط في يدها ، وتسارع في ارتباك إلى المنزل حيث تعلم أن البوليس قد استدعاها لاستجوابها . وفي مركز البوليس تواجه باتهام زوجها لها بمغادرة بيت الزوجية بعد أن سرقتها . وبرغم هذه التهمة التي يلصقها بها الزوج فقد حجزها حجرة بأحد الفنادق ، ولكنه يطالبها بأن يقضى معها الليل في هذه الحجرة . وترفض الزوجة هذا الطلب فيهددها بالاحتفاظ بالسند القانوني الوحيد الذي يثبت براعتها في قضية سرقة كانت قد سجلت من أجلها ظلماً . حيث لا يصاب جسمها بانتفاخ مما اضطرها إلى العودة مرة أخرى إلى المستشفى حيث شرع الأطباء يعالجونها من تورم أذنيها في الأطراف .

وواضح مما تقدم أن سلوك الزوج سلوك عصابي بحق . أما سلوك المريضة ، فإنه ينصح عن استعداد للاستجابة لمواقف الصراع النفسي بأعراض عضوية مرضية ، كما تكشف عن ذلك النوبات الشبيهة بالملاريا ، والورم الذي كان وظيفياً لا عضوياً . هذا ولا بد من الإشارة إلى أن المريضة كانت تمثل دائماً في موقفها من زوجها دور الضحية المحيى عليها ، وذلك خير دليل على ارتباطها المازوشي بزوجها . وقد تنبئ هي نفسها إلى طبيعة هذا الارتباط إذ تقول : « شد ما أشعر بالحجل إذ كابدت كل ما كابدت ، وكم أحقر نفسي إذ احتملت زوجي ولم أطلب الطلاق . »

وهنالك حوادث أخرى زحرت بها حياتها الزوجية ، لا داعي لذكرها حيث أنها جميعاً من نفس الأسلوب . ولكن لا بد من الوقوف عند الحادث الذي وضع

حداً لحياتها الزوجية ، فهو يدل دلالة عميقة على سيكولوجية الربو . إنهم زوجها في قضية اختلاس بالاشترك مع المحرم المشهور «ستافسكي» ولما اكتشفت الأمر حاولت تداركه قبل تفاقمه دون جدوى . وعلى أثر ذلك قرر الزوج العودة نهائياً إلى بلده رومانيا تفادياً للعقوبة . وصحبه الزوجة يوم الرحيل إلى المحطة حيث ودعته . وفي المساء من نفس اليوم انتابها نوبة ربو كانت أول النوبات الكبرى التي تعرضت لها status asthmaticus ، وبلغ من عنف هذه النوبة أن لازمتها عدة أيام اضطرت أن تلزم المستشفى طولها وهي على أسوأ حال . وبعد عامين من هذا الحادث تسلم رسالة من زوجها تهيج فيها الشوق والخنين الزائد إليه حتى لتعترم اللحاق به ، لولا أن واجهها إزاء أبنائها يحول بينها وبين تنفيذ ما اعترمت . وتحت وطأة هذا التردد والصراع النفسي تصيبها نافي نوبات الربو الكبرى .

ولا بد لنا إن أردنا تفهم طبيعة ارتباط هذه السيدة بزوجها ، أن نسابر تكوينها الوجداني منذ طفولتها كما تكشف عنه مأساة طفولتها التي تسردها على النحو التالي : « كان من عادة أمي أن تتحدث عني بلفظ «الأخرى» . وكان أبي يحيب ، (إنها ليست بنت حرام) ، كنت أحس كما لو كانت أمي لا تستطيع احتيالي ، فما أذكر أنها داعبتني يوماً ، وكنت حين أراها تداعب أخواتي يتولاني حزن شديد . ومع ذلك فقد كنت أكنز لأمي الحب ، وأعجب بجيائها ورشاقها ... ما نازعني شوق إليها إلا صدتني عنها . ولكنها عندما مرضت في طفولتي أحسنت رعايتي واهتمت بعلاجي . وعلى أن أقر - فضلاً عن ذلك - بأنها كانت تحميني من الآخرين ، إنها إن كانت ترى من حقها أن تسيء إلي ، فما كانت تقبل من غيرها أن يسيئوا إلي . من ذلك أنها حملت علي عاتقها الدفاع عني في القضية التي انتهت بسجني ، ومع ذلك فقد عبرت لي عن اغتباطها بهذه النهاية . »

نستطيع أن نفهم من هذه القصة كيف كانت الأم لشخصيتها العصابية تفرغ في ابنتها المسكينة كل ما يضطرم بين جوانحها من بغض وكرهية ، وكيف كانت تحرص في نفس الوقت على أن تبقى ابنتها في حوزتها راضحة لها معتمدة عليها ، تتلقى منها الأذى وتحظى منها بالحماية من الأعراب ، كما لو كانت وحدها دون غيرها صاحبة الحق في التصرف في أمرها بالخير أو بالشر .

في هذا الجو تكونت شخصية المريضة ، وفرض علينا ارتباطها الوجداني هذا بأمرها أسلوبها الخاص في الاستجابة للمواقف الوجدانية المختلفة . ويتميز هذا الأسلوب بانعدام النضج الوجداني ، واتجاهه دائماً إلى تحقيق الوفاق مع كل من يقوم مقام الأم حتى لو كان رجلاً لا امرأة . وفي ذلك تفسير كاف لعلاقتها الفريدة بزوجها الذي كان لها بمثابة الأم فوقه منها لا يختلف عن موقف أمها منها من حيث الرعاية المشوبة بالقسوة والتحكم . ولا يفوتنا أن رحيله تسبب عنه أعنف نوبة ربو أصابتها . ومادامنا بصدد قسوة الأم في معاملتها للمريضة في طفولتها وحب أن نبيه إلى أن هذا الضرب من المعاملة ليس أمراً شائعاً لدى جميع المصابين بالربو . فعالمنا ما كان موقف الأمهات من هؤلاء يتصف بالعطف المفرط ، والرعاية الزائدة عن الحد لدرجة عطلت نموهم الوجداني . إذ استمرأوا هذا العطف وهذه الرعاية وتشبثوا بموقفهم الطفلي فكانوا في حاجة دائمة إلى الأم أو من يقوم مقامها . إذن فالرعاية المفرطة تؤدي إلى نفس النتيجة التي تؤدي إليها القسوة في المعاملة ، وما ذلك إلا لأن الرعاية المفرطة تحمي بغضاً مكبوتاً .

نعود إلى مريضتنا ثانية فنشير إلى أن الفحص الطبي لجسمها ، والاختبارات المعمولة العادية ، والكشف عن الرئتين بالأشعة ، وفحص الأنف ثم الألبيرجيا بواسطة اختبارات الجلد ، لم يسفر عن شيء يستحق الذكر . لذلك ينبغي لنا أن نعتبر الربو في هذه الحالة عصاباً الغلبة فيه للعوامل النفسية .

هذا وقد جاءت دراسة شخصية المريضة بواسطة منهج التحليل النفسي مدعمة للنتائج التي أسفرت عنها الدراسة التاريخية السالفة للمريضة . فقد أتاح لنا التحليل النفسي أن نعاين أزمات ربو كانت تستثيرها ملابسات التحليل وما تتضمنه الأحلام وسرد الذكريات من مادة معينة .

من ذلك أن المريضة بدأ يشغلها منذ جلسات التحليل الأولى إحساس غريب في سرتها ، ذكرها بالحبل السرى الذي يصل المولود الحديث بأمه ، وصرحت في النهاية بأنها تشعر أن وجودنا (الطبيب المحلل) أشبه بوجود أم تحنو عليها وتسهر على أمرها . وصحب هذا التصريح شعورها بالارتياح وتوقفت أزمات الربو في مبدأ العلاج . ولكن الأزمات كانت تعاودها من جديد كلما انقطع العلاج

بسبب العطلات الأسبوعية والأجازات . يتضح من ذلك أن ما يشترط أزمات الربو هو الانفصال عن بديل الأم . وقد وضح ذلك أيضاً فيما سبق إذ أصيبت المريضة بأول نوبة ريو كبرى عقب رحيل الزوج نهائياً . والزوج - كما أسلفنا - بديل من الأم .

هذا التعلق بالأم نطقن إليه أيضاً في أحلام المصابين بالربو التي ترمز إلى الرحم معبرة عن رغبة شديدة في أن يحظوا في كنف الأم بالرعاية والحماية . وقد سردت مريضتنا حلماً من هذا القبيل : رأت في منامها أنها نهبط درجاً طويلاً يفضى إلى كهف ، ثم تجدد نفسها في مكان أشبه ما يكون بمخزن به أشياء لم نعرها أهنأماً . وتشعر إذ نهبط الدرج بحضور إحدى صديقاتها . وغير خاف أن الكهف يرمز إلى رحم الأم ، وهبوطها الدرج تعبير عن رغبتها في التراجع إلى حالة الحنين المرتبط ارتباطاً تاماً بالأم . أما الصديقة فقد ذكرتها بشخصية أم من النوع المسيطر ، ويذكرها الدرج بوليس لها مات من قبل . وكان - رغم فظاظته - وافر الخاسن ، وكانت تسمى لو أتبع لها يوم وفاته أن تستلقي إلى جانبه ، وتسد رأسها إلى كتفه . وكثيراً ما تمت لو أمكها أن تغير من طباعه . (ينبغي ألا ننسى أن أمها كذلك كانت عصبية المزاج ، فظة في معاملتها وكثيراً ما تمت ابنتها أن تغير من فظاظتها وقسوتها) . وما أن وصلت المريضة في التداعي إلى هذه الحواطر السالفة حتى بدأت تخرج ويضيق نفسها .

قد يعترض البعض فيما يتعلق بالأحلام التي ترمز إلى الرحم أنها ليست وقتاً على المصابين بالربو بل مشاع بين جميع العصائين . ولكن التجربة تثبت أنها أكثر وروداً بخواطر المصابين بالربو . قام ألكسندر ببحث إحصائي يبين أن متوسط الأحلام ذات الإشارة إلى داخل الرحم تبلغ نسبتها ١٨٪ من جميع الأحلام لدى جماعة من المرضى بالربو ، في حين أنها لم تتجاوز ٧٪ لدى جماعة أخرى من العصائين .

نلاحظ بعد الفترة الأولى التي يتملك المرضى فيها الملح لفكرة الانفصال عن الأم أو عن بديلها ، محاولة من جانبهم للتكيف باستخدام حيلة دفاعية خاصة ، للتخلص من الملح ومن تمت تتوقف أزمات الربو . هذه الحيلة الدفاعية هي أن يصطنع المريض موقف الاستقلال عن الأم . وهذا عين ما حدث

المريضة إذ أخبرتنا بعد العودة من الإجازات في أول جلسة أنها قضت الأسبوع الأول من الإجازة نياماً لأزمات حادة من الربو ، ثم شعرت بتحسن كبير ، وأصبحت على درجة طيبة من الحيوية وتخلصت من الألم والتوعك . وعلفت هذا التحسن بقولها : « كنت كأنتى فى نشوة ، ولكننى كنت أحس أننى لن أبقى على هذه الحال . وأنا حال وهمية ، وأننى لم أكن أنا ، كما لو كنت أريد أن أنسى . » والواقع أنها استطاعت أن تستأنف عملها على نحو أدهش رؤساءها . وفضلاً عن هذا فقد حدث تغير هام لها أثناء الإجازة ذلك أنها — وهى المعتزلة الزاهدة زهداً تاماً منذ فراقها زوجها — تعرفت برجل واتصلت به اتصالاً جنسياً . قالت لنا بهذا الصدد : « أنت المسئول بإدكتور عما فعلت . » تقصد أن سفرنا وانقطاعنا بذلك عن التحليل هو الذى دفعها إلى هذا السلوك . وحقيقة الأمر أن هذه العلاقة الجنسية التى كونها كانت علاقة مصطنعة ، حاولت بها تغطية ارتباطها الطفلى بنا (بدلاً من الأم) ، وإيهام نفسها أنها تحررت من نفوذ الأم وأصبحت تسلك مسلك السيدات المستقلات . وبهذه الحيلة تنقلب على ما تشعر به فى قرارة نفسها من هلع لفكرة الانفصال عن الأم ، بسبب سفرنا . يدلنا على ذلك أنها بمجرد استئناف العلاج بعد الإجازة ، عاد لها ذلك الشعور الغريب فى سرتها وهو كما رأينا عرض تحولى يعبر فى لغة عضوية عن الارتباط بالأم . وفضلاً عن ذلك فقد بدأت أعراض الربو تظهر عليها وأصبحت من جديد أقل إنتاجاً فى عملها ، وأقل قدرة على تركيز انتباهها . أما عن سلوكها الجنسي فقد عدلت عنه ، وبالرغم من إلحاح صديقها فقد صدته ولم تعد بها حاجة إليه .

ليس الصراع من أجل الانفصال البدنى عن الأم هو وحده السبب الذى يثير القلق فالربو لدى المرضى به . ذلك أن كل ما من شأنه أن يغيظ الأم تسبب عنه كثيراً أزمات الربو ، فإغضاب الأم ينتج عنه ابتعادها معنوياً بين حبا وعطفها وحنانها . وهكذا فأى هوى جنسى أو علوانى يراود النفس ، ويعتبره المريض خطراً يهدد علاقته الطيبة بالأم ، يثير القلق والربو ، إلا إن وفق المريض إلى إحدى الحيل المعتادة وأخص منها بالذكر « الاعتراف » . فكلما تمكن التحليل من إفساد حيل المقاومة ، وبدأت الدوافع الجنسية تشفى

إشباعاً ، وجدنا المريض تنازعه الرغبة في الاعتراف بهذه الدوافع التي يخشى منها على إغضاب الأم . فما الاعتراف إلا أبرز الخيل الدفاعية الحقة التي يلجأ إليها المريض بالربو ، ففيه توبة وتكفير واسترضاء بذلك للأم وضمان لقربتها منه .
يبد أن الاعتراف قد يؤلم النفس أحياناً ، ولا يبدو أنه ينجح في كحل الأحوال في القيام بدوره الدفاعي . ولما كان المريض يعتبر الاعتراف أحياناً خطراً يمكن أن يهدده ، فإنه يترجم عليه في إيراد حواطره ، وينهى الأمر باحتباس الاعتراف في حلقه ، وفي هذه اللحظة بالذات تنبث أزمة الربو .

نتبين لنا حقيقة هذه الخيلة بشكل أوضح من الحالة التي وصفها « سول » L.Saul الأمريكي : تلك حالة مريض بدأت تتابه أزمات الربو عقب زواجه الذي لم تقره أمه عليه ، وما أن بدأ علاجه بالتحليل النفسي حتى أصبحت تعاوده نوبات الربو في الشتاء لا في الربيع فقط كما كان الحال قبل بدء العلاج . وبدأت تلك النوبات الجديدة بعد اتصاله الجنسي بفتاة ، إذ سارع مباشرة إلى زوجته نحتدم في نفسه رغبة شديدة في الاعتراف بكل ما اقترف . ولكنه لم يستطع فاكتفى باعترافه بمقابلة الفتاة فقط . وعلى أثر ذلك تملكته أزمات الربو مدى شهرين . وما أن أوقفه التحليل على الارتباط الوثيق بين الرغبة في الاعتراف بالاتصال الجنسي وبين أزمات الربو حتى توقفت أزمات الربو .

* * *

وتمت عامل آخر شديد الأهمية في إحداث أزمات الربو ، ذلك هو الرغبة في العدوان الذي تستتبه الغيرة من أخ أو أخت . وقد كشفت المريضة أثناء ظاهرة التحويل عن غيرتها ورغباتها العدوانية تجاه أختها الصغرى مرتين . وكان وصول مريضة أخرى مثارا لهذه الغيرة العدوانية لدى مريضتنا ، وقد حدث ذلك مرتين . في المرة الأولى بدأت المريضة تفصح في حلق عن ازدراءها للسلوك الوصولي الذي انتهجه فتاة موظفة في سبيل الحصول على وظيفة إحدى زميلاتنا . واستعرضت مريضتنا - فضلا عن ذلك - الذكريات التالية : « أذكر أنني لمحت في يوم من أيام طفولتي الباكورة آثار دم يلطخ بعض ملابس أمي ، أظنه الآن دم إجهاض أو حيض . ولكنني لم أستطع حينئذ لصغر سني أن أفهم جليلة الأمر . فأخبرت إحدى مدرساتي بالأمر ، فما كان منها إلا أن بلغت

أمي بكل ما أنبأتها به ، أحفظ ذلك أمي فعفتني تعنيفاً شديداً . وبذلك أسأت
لأبها حيث لم أقصد إلى ذلك .

وفي نفس الجلسة جاء ضمن خواطر المريضة أن أمها كانت مصابة بالفتاق .
إن ما استعادته المريضة خاصاً بالدم يلمح ملابس الأم ، ورده إلى حبس الأم
أو لإجهادها (وكلاهما تعبير عن تمنيا أن يفسد الحمل) ، وبالفتاق (وهو
يؤثر إلى انتفاخ في بطن الأم) ، إن كل ما استعادته المريضة دليل على ما
ينازعها من رغبات عدوانية موجهة ضد بطن الأم في حالة الحمل من ناحية ،
وإلى أخنها الصغرى من ناحية أخرى . ولا شك أن تلك الرغبات المزوجة تهدف
إلى استبعاد غريم يهدد علاقتها الوثيقة بأمها .

ولكن الرغبات العدوانية بدورها قد تغضب الأم ومن ثمت تسبب فراقها ،
لا بد إذن من إجراء دفاعي ضد هذا الخطر المحتمل . وهنا نرى لزاماً علينا أن
نشير إلى حيلة دفاعية تالفة ، طالما تصادفها لدى هؤلاء المرضى : تلك هي
أن المريض يصطنع بنفسه سلوكاً عدوانياً يستفز به الأم ، فيحقق بنفسه
الخطر الذي يخشاه - أعني غضب الأم وفراقها - وذلك حتى يتيح لنفسه أن
يواجهه متأهباً له ، بدلاً من أن يفاجأ به وهو غير معد لخبايته . إذن فالمرضى
بسلوكه العدواني المصطنع يحاول أن يتفادى مغبة ميوله العدوانية الأصلية ، فضلاً
عن أن المريض يجعل من سلوكه العدواني المصطنع ابتلاء يستوثق به من أن
الأم لن تنزل به غضبها مهما كان في سلوكه أو نزواته من زيغ . وهكذا رأينا
المريضة خلال عدة أيام تلح علينا وتلحف في طلبها بقيامنا شخصياً بتدليل
بعض مشاكلها الخاصة ، لتزاح مع رؤسائها ، وكان يتخلل حديثها عبارات
فيها استفزاز ونجريح لنا .

وفي آتية أخرى طغت عليها الميول العدوانية ، قصت الحلم الآتي : « ترى
دودة تكاد تندس برؤسها في الأرض ، تمسكها وتسحبها إلى الخارج ، ثم تلتقي
بها لدجاج ينهبها . وتحمل دودة أخرى لفتلة «نيويورك» كأنها ، على حد
قولها ، نتاج أمريكي . ثم تستطرد ذاكرة دواء أمريكا ضد الربو ، وتخرج
من حقيبتها إعلاناً عنه تقدمه لنا . هذا وقد ذكرت المريضة في فاتحة
الجلسة ، أن زوجة أبها قد وضعت ثم طلبت مني أن أحننهما إذا كان المولود
أثني أم ذكراً . ولا التزمت الصمت ، أزعجها ذلك وقالت إنها كانت تحسن

كأنها مدفوعة إلى أن تبوح لنا بحقيقة الأمر . ولكنها آثرت مقاومة هذا الدافع لأنها كانت تأمل أن تبادر بالإجابة . وأخذت ، طوال الجلسة ، تعود إلى هذه المسألة . وفي كل مرة ، يعاودها ذلك الإحساس الذى ينتاب سرتها . وانتهت ، برغم ذلك ، بالكشف عن جنس المولود . ولتذكر من بين خواطرها زيارة إحدى معارفها بالأمس . وهى سيدة ، برغم صفوة قلبها ، إلا أنها عدوانية لا تحب الأطفال كثيراً . وأشارت عند تكرار الحلم بيدها لتبين كيف نهش الدجاج الدود . ثم تعلق على إشاراتها بأنها غير لائقة . وبأنها قد تكون محل نقد من الغير . وبعد ذلك بلحظات نحس بألم يسرى فى ذراعها الذى لوحث به للدلالة على تقطيع الدود . ولتذكر أخيراً أنها فى الجلسة السابقة رأت مريضة جديدة تخرج من مكتبنا بالمستشفى فسخرت منها .

وينبغى أن نلاحظ أنه فيما عدا نوبة ربو خفيفة انتابها فى الأمس ، فإن هذا الحلم العدوانى ، والذى يعبر عن الرغبة فى القضاء على الجنين الذى يشغل بطن الأم (دودة مندسة فى الأرض تنزعها وتلقى بها إلى الدجاج الذى يهشها) لم يعقبه الربو لا فى أثناء الليل ، ولا أثناء الجلسة . ذلك أن الجانب العدوانى من الحلم يزامله عنصر دفاعى ترمز إليه الدودة الثانية التى تحمل لفظة « نيويورك » كأنها نتاج أمريكى يقى من الربو ، وبكشفت عن ذلك إشارتها مباشرة إلى دواء أمريكى جديد ضد الربو قدمت إلينا إعلاناً عنه . أما الجانب الدفاعى من الحلم فهو دفاع بواسطة الاعتراف يبدو لنا فى تقديمها الإعلان إلينا . ثم فى تضالها كى تبوح بصلة الدودة الأولى محل عدوانها ، والمولود الحديد الذى حدثنا عنه ، ونلاحظ أنها كانت قلقة حائرة بين رغبته فى الإقضاء بحقيقة الأمر وبين جزعها من رغبة الاعتراف . ومع ذلك فقد انتهت بالاعتراف .

ويجدر بنا أن نذكر أن نوبات الربو كثيراً ما تنهى بالبكاء ، وزيادة على ذلك فإن التقدم فى العلاج التحليلى يمكن بعض المصابين بالربو من البكاء بعد أن كانوا عاجزين عنه قبل التحليل . وبذلك يحل البكاء محل أزمات الربو . كل ذلك يوحي لنا أن أزمة الربو هى نوع من بكاء القلق أو الغضب المكبوت . « يؤدى البكاء فى الطفولة الأولى إلى استدعاء الأم للطفل ، وليسب ما ،

كان الطفل في المواقف المثيرة للربو ، عاجزاً عن البكاء ، أما في المراحل التالية من الحياة فإن استدعاء الأم بالبكاء تستبدل به الوظيفة اللغوية ، ويلعب الاعتراف دور الرابطة الوثيقة بين الطفل وأمه « (١) » .

ينبغي أن نخصص المشكلة الدقيقة، مشكلة علاقة الأليلرجيا بالعوامل السيكولوجية. والمشكلة على هذا الوضع تخلق معضلة لا يسهل حلها . وكل ما نستطيع قوله في حدود معارفنا الحالية . أن العوامل الأليلرجية والعوامل السيكولوجية يكمل بعضها بعضاً ، الأمر الذي فطن إليه « تروسو » في تجربته الشخصية السالفة الذكر ، ويزيد وجهة النظر هذه توقف أزمات الربو إذا فضت الصراعات الوجدانية بفضل علاج نفسي ناجح برغم بقاء الأرجاع الجلدية الخاصة بالأليلرجيا . ولذا نذكر في الختام أن علاج مريضتنا الذي دام طوال عام ونصف مضى على نهايته نحو ثلاث سنوات ومنذ ذلك الحين لم تصبها أزمات ربو برغم كون معيشتها لم يطرأ عليها تعديل ما .

ولندكر أخيراً أن العلاج التحليلي النفسي واجهته ، فضلاً عن ذلك ، لدى هذه المريضة المشاكل الأساسية التي تصادفنا في كل عصاب ، ولكننا نغفل ذكرها لأننا لانرى إلا إلى تخطيط السمات النفسية المميزة لمريض الربو . وفيما يلي تلخيص هذه السمات :

- (١) الأزمة رد فعل لخطر الانفصال عن الأم أو من يقوم مقامها .
 - (٢) الأزمة بديل عن دموع القلق المكبوتة .
 - (٣) الأسباب التي تهدد المريض بفقدان أمه أو من يقوم مقامها هي ما يستهدف له من غوايات تراوده . وأن مهمة قهر الخوف من هجران الأم تصبح لدى المريض الموجه الأساسي لحياته وشغله الشاغل .
- أما النتائج العملية فنجملها فيما يأتي :

- (١) إن جميع المصابين بالربو الذين فحصوا فحصاً سيكولوجياً عميقاً يشتركون في تركيب سيكولوجي واحد يمكن أن يتخذ كدعامة في التشخيص . ويشترك هذا التركيب في نقاط عدة مع تركيب المرضى الذين يعانون عللاً الأليلرجية أخرى . الأمر الذي يوحي برابطة وثيقة بين التركيب المذكور والعمليات الأليلرجية .

(٢) جميع الحالات التي وفق فيها العلاج بالتحليل النفسي إلى إحداث تغيير جوهري في نفسية المرضى بالربو اختتمت بتحسين عظيم بل وشفاء تام في أحبان كثيرة .

مصطفى زبور

مراجع

1. Delay, J. et Ziwar, M.: Etude psychosomatique d'un cas d'asthme bronchique. Annales Médico-Psychologiques. Octobre 1948.
2. Dunbar, H.F.: Emotions and Bodily Changes. New York 1946 3d. ed.
3. French, T.M.: Psychogenic factors in Asthma. Amer. J. Psychiat. 1939.
4. French, T.M. Alexander, F. and others: Psychogenic factors in Bronchial Asthma: Psychosom. Med. Monogr. 1941.
5. French, T.M.: Psychogenic factors in bronchial Asthma in The Treatment of Bronchial Asthma by Vincent J. Derbes and H.T. Engelhardt. Philadelphia 1946.
6. French, T.M. Psychotherapy in bronchial Asthma. in Studies in Psychosomatic Medicine. Edited by Alexander F. and French, T. New York 1948.
7. Gerard, M.: Bronchial Asthma in Children. in Studies in Psychosomatic Med. Edited by Alexander & French. New York. 1948.
8. Gallup, P.: L'asthme d'origine Psychique. Gaz. Méd. Fr. 1937.
9. Hansen K.: Zur Frage der Psycho-oder Organogenese bei allergischem Bronchialasthma und den verwandten Kraulheiten. Über psychische Bedingungen des Bronchialasthmas. Nervenarzt, 1939, 3, 513.
10. Mc Dermott & Cobb.: A psychiatric survey of 50 cases of bronchial-asthma. Psychosom. Med., 1, 1939.
11. Rogerson, Hardcastle & Duguïd: A Psychological approach to the problem of asthma and the Asthma eczema-prurigo-syndrom. Guy's Hosp. Rep. 85, 289, 1935.

12. Saul, L.: Some observations on the relations of emotions and allergy, *Psychosom. Med.* 3, 1941.
13. Stokes, J.H. & Beerman H. Psychosomatic correlations in allergic conditions; a review of problems and literature. *Psychosom. Med.*, 2, 1940.
14. Wittkower E. Studies on the influence of Emotions on the functions of organs including observations in normals and neurotics. *J. ment. Sci.* 81: 533, 1935.
15. Ziwar, M.: Psychanalyse des principaux syndromes psychosomatiques. *Revue Fr. Psychanalyse* 4, 1948.
16. Ziwar, M.: Asthme et Psychisme. Communication au Congrès de l'Asthme. 1950.